أنا وأنت
تأليف
الدكتورة عائشة السيد

اسم الكتاب: أنا وأنتِ

تأليف: عائشة السيد

تصميم الكتاب: فاطمة فتّوح

للتصميم: 0992481213

سنة النشر: 2026

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلِّفة، ولا يُسمح بأيّ نسخٍ أو اقتباسٍ من الكتاب دون إذنٍ مسبقٍ منها.

الإهداء

إلى فتاةٍ تحمل أمومةً قبل أن تصير أمّاً، من أمومتها تغصّ بالعجب من الواقع والوله، من يتحوّل العابد بين يديها إلى أيقونةٍ لا يراها سوى المؤمن باللّه، لكِ يا أنتِ، وأنت أنا، أهدي كتابي هذا إلى الأمّ ما احتضنت أطفالي، ومن هم أطفالي الآن سوى كتبي؟!

المقدّمة

حين تحمل ذاتك بك، وتراها بعين الحقيقة، وتشعر بها دون أقنعةٍ، وتسمع صوتك دون تعديلٍ، وتلمسك دون إبهارٍ، وتحسّك بالفطرة، ولا تحتاج إلى زينة لتظهر بها، فقط تخرج وبك ذاتك، ترتدي نفسك، وتخاطب بها، وتحيا بها، وتموت بها، عندها فقط، تكون، أنت، أنت، فهل كنت أنت، أنت؟!

ما أرويه لك في هذا الكتاب، هو انتمائي لذاتي وحمل هويّيتي، والعلن بما أكنّه من نفسيّات، والجهر بما أحمله بي، ما يربطنا بتماهٍ غير مرئيٍّ، بل هو أقوى من أزيز رصاصٍ أُصيب قائد المعركة، لكن لم تقتله الشّظايا، بل منحته روحاً جديدةً، وما أجمل بدايات الحياة حين تهبنا فرصةً، لعلّها سعيدةً!

أتماهى في رحيلي بين رحلات اكتشافني، فأصوب الطّريق مرّةً، وأتيهُ مرّاتٍ، لكنّ حلقة الضّياع المُفرغة هذه، أجدت إكمال قطرها، لأتوجّه إلى مركزها، محتفلةً بي، بلقائي، بمعرفتي، بكوني وجدّتُني، فبعد أن ظللت أتعكّف من رحيلٍ إلى رحيلٍ، وصلتُ لمحطة الطّهر بعدها وغنيّت أيقونة بقائي بي، حتّى بلغت غاية التّمعلق، من أيقونةٍ إلى قداسةٍ، فما أبدع الرّحيل حين جمعنا!

لا يسعُ ذاتي كونٌ، فالغبطة بلقاءٍ
كهذا أشفت العلل، وداوت
الأسقام، وضممتني رمشةٌ من
عينيّ دمشق، أولستُ أنا
ياسمينيّتها؟!
ذقتُ بحضن دمشق سكينة الرّوح،
نزلت عليّ دفعةً واحدةً، كأنّها تنزل
على كهف العبادة، فحضنها آمنٌ،
لا يغطيه حقد الكارهين، وتذوّقت
به عشرة آلاف سنة بلحظةٍ، أوغريب
هذا على دمشق وحبيبتها يا أنتِ؟!
فكلاكما فجر التّاريخ وفخره، وحنين
العمر وحضنه، وأجمل قداسة الأرض
وطهرها، وأنتما مرّةٌ باقيةٌ في عمرٍ
فان

فلتسعدي بحضنها، ولتسعد بكِ.
على شفتيّ ولهٍ، وعلى ارتعاشة
حلمٍ مُشتهى، وعلى لحظة احتراقٍ
واشتياقٍ، وقفت ألفت لفتةً إلى
الوراء، أخاطب ذاتي، أناقشها،
أحدّثها، أسألها، فتجيب تارةً،
وتصمت كثيراً، تبتسم غالباً، وتدمع
أحياناً، لكنّها دائماً تتباهى،
تشتعل ناراً ربّما تحرق الوجود
بأسره، ترفع على رأسها تاج
القوّة، وتزيّنه بلآلئ العزيمة،
وترصّعه بمرجان الأمل، وتحفظه
بقمّة النّجاح، فتلك أسطورة لحربٍ
ما عُرف لها توقيتاً

لم يكن بها هدنةً، ولم تُحدّد لها
نهايةً، وأيضاً بدايتها كانت مباغتة
الحياة لها مذ صرختها الأولى،
عندما هبط النّور من عليائه ترحيباً
بقدومها، باتت الدّنيّا تغار، وتهيّئ
لها مفاجآتٍ ثقيلةً، لكنّني أدركتُ
وذاتي أنّ الأيّام كلّها موزّعة على
المسامات، ولا يكفي الدّهر ليتكوّن
في رحم الأزل، إنّه التّماهي
المُطلق، ما أبدعنا به، حين حطّ
الزّمان علينا، فكنّا في قمّة القمم،
حتّى وصل جوهر اليقين، ووصل
المُطلق!
تخبرني بسرٍّ إن خضع لتفسيرٍ لكان
تسلّلاً من أصابع الموتى

على حدوده يمضي ما تبقّى من العمر، بكامل الدّهشة والكينونة، كأنا وهي كغاردينيا ودمشق، كعابدٍ وإله، وما تبقّى سوانا ما هو إلّا تجاوز الأعمار!

تقولي لي ما الفائدة إن رقصنا مع دفقات الدّم؟! دعينا نعيش أجمل، والحزن يطويه المدى، فلنرقص حينها على وتر الكبرياء، ونتناغم ونستكنّ هدوءاً، كما تفعل السّتائر المُرخيات في عابدٍ بالعتمة، تُسكنه إلى الأبد، ونتعمّد العيش بالطّهر المُنساب، ونعيد ألق التّماهي بجوهرنا، وننسج دعواتنا لغدنا من قبلات رحيل ذكرياتنا!

تطلبُ منّي أن أبدأ صباحي
بحلمٍ، وأنهيه بأملٍ،
وبينهما أتذكّر حزناً سلب
منّي رونقي يوماً، لأعود
وأتمنّى حلماً آخراً، وهل
لقتل الأحزان وسيلةً سوى
الحلم؟!
حين يُحمل الحلم بقلبك،
ويغيب عنك صانعه، يصبح
الحلم حياةً، ولكلّ حياةٍ
غاية، فهل وجدتّهما؟!

أجدُها وقفت خلف السّتار، ودعته يقف بيننا، فتعجّبتُ من كونها تُخفيني عنّي، وحينها أدركت أنّ الرّؤية من وراء الحجاب أكثر عذوبةً، فبدأت أرنو إليّ وأجدُني ألقاً لا ينتهي، ففهمت ما تفعله نفسي معي، فالقرب كثيراً يُضعف بصرك، فيغدو السّتار حاجةً لا رفاهيّةً، فالحجاب أيضاً مُنقذاً، لا مُمنعاً، والجوهر المُطلق هو أن تفرّق بين متى تقترب منك، ومتى تراك من وراء حجاب، فهل شعرت بعمق ما أعيشه؟!

أخرجُ من وراء السّتار، لأجد نفسي تماهت في الفضاء، تعلو نحو الأفق، وتوحي لي بإيماءاتٍ فسّرتُها كونها دعوةً للصّلح، ففهمت ما تودّ أن تقوله لي، فقد تقهقه وروحها ثكلى

وكأنّها مصابةٌ بما لا شفاء منه من الثّكل، وأنا وحدي أجهله، وهي وحدها تدركه، وحدها تدرك كلّ تفاصيله، وأنا من أشغلتني الدّنيّا عنها، فنسيت أن أسألها عن صفقة الصّلح بيننا.

يقشعرّ بدني لغيمة حزنها ما أسدلتها عليّ انغماسي في عالمي، مهملةً إيّاها، فأنظر لها بدموع الاعتذار، وأعدُها أن أنزرع في كلّ فاصلةٍ من تعبي، حتّى أشفي كلّ أوجاعها، حتّى يحدث وأشفيها من شتّى شقائها، فالثّكل دواءٌ وشفاءٌ يا حبيبتي

و وحدها المعرفة داءٌ!

أقسى ما أدركناه أنا وإيّاها، أنّ المعرفة داءٌ، كيف ولا ونحن نعلم أنّه لا يتألّم سوى العالم، ولا يتنعّم سوى الجاهل؟!

فكما قال أبو الدّرداء "ازددْ علماً تزدد ألماً" وهو واللّه صادقٌ، فالجهل دواءٌ، والمعرفة ألمٌ، لكنّنا يا أنا اخترنا طريقنا، فهل ترين لنا عودةً؟!

هل زارنا التّردّد يوماً، هل لبّينا نداء الخوف؟!

هل كنّا تائهين عمّا نريده؟!

هل تراجعنا عمّا يليقُ بنا؟!

أولسنا نحن من رسمنا ما يليق لنا؟!

أنسيتِ كم كان الثّمن غاليّاً؟!

أغاب عنك ما قدّمناه من تضحياتٍ؟!

أتقبلين أن ننحسر إلى العاديّة؟!

أترضين أن نسير مع التّيار؟!

أيليق بنا ما يليق لسوانا؟!

تصمتُ قليلاً وكأنّها تريد منّي أن أستخدم حسّي في الوصول إلى جوابها، ما يكون هو جوابي، فأنطق إنّها السّلطنة!

إنّها الغاية الأعظم!

غاية الغايات في النّشوة

أن نسلطنَ

أن نخلع التّاج

أن ننزرع في الماء المُقدّس

أن نكون وحدنا

أنا أنتِ

أنتِ أنا

سرُّ دهشتنا بنا يلفّنا عمراً، ننغمرُ في الدّهشة، ونتوقفُ عن الثّرثرة، نصيغُ لنا، نسمعُنا، ونحدّثنا.

تقتربُ ذاتي منّي، تشيرُ لي أن أنصت ولتتكلّم هي، تقول:

افتقدتُكِ، فكيف تسيرُ أيّامكِ؟!

أسعيدةٌ أنتِ، أتشعرين بالتّعب؟!

هل غدا حِملُكِ ثقيلاً؟!

هل باتت عيناك ساهرةً؟!

أما زالت شفاهك تنطق ما تودّه، أم روّضت الحياة حبالك الصّوتيّة، وأفقدتك الصّراخ؟!

أتضحكين كفراشات الزّهر، أم كقناع القوّة؟!

أتسعدين بانشغالك، أم هو مهربٌ لمواجهتنا؟!

أتسجّلين لي أسرارك، أم تكتميها عنّي أيضاً؟!

أتبوحين لي بما تشعرينه، أم ستودعينه في أسطر كتبك؟!

أتجاوزتِ ما حدّثتك عنه لأعوامٍ، أم ما زلتِ عالقة بين القناعات الكثيرة؟!

أأكملُ بأسئلتي لكِ، أم اختلّ توازنك كي أصمت؟!

انهمرت الأسئلة عليّ كالمطر، وأغرقني طوفان نظراتنا لنا، فما عدت أعرف إن كنتُ أغرق، أم أحبّ المطر مع الطّوفان، فربّما أكثر ما نحبّه يقتلنا يوماً، فهل المطر يقتلني الآن؟!

حاولت أركض منّي هرباً من الإجابة، فأنا اعتدت الهروب حين لا أطيق الإجابة والشّرح والتّفصيل، اعتدت قول المختصر الكثير، أو ربّما الصّمت التّام، فكيف أثرثر الآن لها وهي تطلب منّي أجوبةً كثيرةً؟!

ركضتُ وأنا أشعر بالمطر يغمرني، فحين وصل ماؤه إلى قلبي، أوقظ الحنين بي، وهنا توقفتُ عن الرّكض،وبدأت أبكي، وأبكي، وأبكي، كبكاء مئة عامٍ، كسجينٍ أُطلق سراحه ونسي كيف يكون ضوء النّهار فبكى حينما رآه، وما عدتُ أعي ما يحصل حولي، فقط أتفاعل مع دموعي وكأنّ العالم خلا إلّا منها.

تأتي تضع يدها على كتفي، تمرّر شعري من بين أصابعها، تربت على قلبي، قائلةً لي:

وهل هربتِ منّي وأنا أنتِ؟!

هل فكّرت بالإجابات وأنا من أسألك؟!

هل حقّاً تحاولين ترتيب حروفك أمامي؟!

هل أنا من تنتظر منك لغةً بليغةً كي تفهمك؟!

هل ستبقين على عادتك بالهروب حينما يعكر صفوك الرّدّ؟!

أغمضتُ عينيّ، وضعت يدي على قلبي، همستُ له أن يهدأ، رفعت رأسي نحو السّماء، فتحت عينيّ على صفوها، آخذت نفساً عميقاً وقلت لها:

أعلمُ يا أنا، أعلم، لكن عمقك يرعبني، ذاكرتك القويّة تهزّ مشاعري، وكلّ تفاصيلك تؤجّجني، فما بالك فاعلةً بي؟!

أرأيت تلك المتاهة يا صديقي وأنت تقرأ، تلك هي مثالاً حيّاً، لما يحصل بينك وبين ذاتك حين يختلط صدى الصّوت، ولم تعد تفرّق من يتكلّم، أهو أنت أم نفسك؟!

وشتّان بينك وبين نفسك، فهذا علمٌ واسعٌ لا يكفي لشرحه كتاباً واحداً، لكنّ سألخصّه لك بشكلٍ بسيطٍ، النّفس هي صوتك القابع بك، هي من مرّت على شريط حياتك كلّها منذ أن بدأت تُحسب من الخَلق، هي من حملت بها الخير والشّرّ، وهي من تحب الحسنات والسّيئات، هي من خُيّرت بين خياراتٍ كثيرة واسعة، فبعضهم اختارتهم بما ينفعك، وبعضهم بما يضرّك، فنفسك تحييك تارةً، وتميتك تارةً، تنقذك أحياناً، وتودي بك إلى الهاوية أحياناً

أمّا أنت، فخلاصة تربيتك، وبيئتك، وأهلك، وعائلتك، وتجاربك، ودينك، وكلّ ما مرّ عليك بكلّ شمولية الحياة، أي أنت مرآة لتفاصيل عيشك.

بينك وبين نفسك سرّاً، إن اكتشفته عشت وأنت ملك قصر كونك، وإن تهت عنه عشت ضائعاً تلهث نحو السّلام والاستقرار ولا تجده، وما يقترن باكتشاف السّرّ هو الوقت أيضاً، فأيّهما الأنسب والأفضل، أن تضيع سنوات عمرك أمامك وأنت عاجزٌ عن كشف سرّ ذاتك، أم تكتشفه وفي العمر مُتّسعٌ لسنوات آخر؟!

فصدّقني الحياة أقصر ممّا أنت تتخيّل، فلا ندري أيّ لحظةٍ منها ستكون هي الأخيرة، فرجائي لك لا تُخدع بصغر سنّك وبكبر الحياة أمامك، فالنّهاية لا تعرف كبيراً أو صغيراً، أما حان الوقت الآن؟!

أنظر لنفسي متذكرّة قول الشّاعر أبي تمام حين قال:

"رماني الدّهر بالأرزاء حتّى
فؤادي في غشاء من نبال
فصرتُ إذا أصابتني سهام
تكسّرت النصال على النصال"

وبعدها أخاطبها خطاب الفتاة الممتلئة بأقوال الحياة، مشاعر الكون، تجارب الزّمن، والعالقة بين شخصياتها الكثيرة، من تقف مع أحدها تارةً، وضدّ الأخرى تارةً، فأنا من تقف في وجه من يعترض طريقها كوقفة أمّ مدافعة عن حقّها بحضانة ابنها الوحيد بعد خيانة زوجها لها!

وأنا من تعطي درساً قاسياً لكلّ من تجرّأ وتجاوز حدوده معها ولو بحرفٍ واحدٍ.

وأنا من تصرخ بوجه من يسلبها حقّها صراخاً يكاد يرجّ الأرض من تحته.

وأنا من تجرح المُتعدّي بأيّ كان جرحاً لا يشفيه زمنٌ.

وأنا من تنظرُ للعابرين نظرة سخف واشمئزاز وقرف حين يمرّون بطريقة مؤذية.

وأنا من تقف في وجه المصائب كجبلٍ ثابتٍ لا يزعزه زلزالٌ.

وأنا من تتحمّل الصّعاب كشابة تعين والدها الضّرير من لا يملك في الحياة سواها!

وأنا كلّ ما تحمله القوّة والجبروت والكبرياء والغرور والعنفوان والشّجاعة والتّمرد والإرادة والعزيمة والكفاح والصّبر والنّضال وكلّ ما هو مُشتعلٌ وحارقٌ وملتهبٌ.

لكن أنا أيضاً أحمل في الطّرف الآخر منّي فتاةً لم تلد الدّنيّا بعد إنسانةً رقيقةً مثلها، بداخلي رقّة لو وُزّعت على العالم لصار حضن أمّ!

بداخلي حنيّة عجيب سرّها، تحيي الميت من عظمتها، وتعطي الملاذ الآمن لخائف نسي معنى الأمان، بي حنيّة أنا أخشاها أحياناً عندما تغمر عاطفتي وأغدو معطفاً دافئاً يجعل صقيع الثّلج يغار منه!

بداخلي أيضاً عفويّة جميلة، بسيطة بشكلٍ يناقض صورتي العميقة، عفوية تتجسّد بفتاةٍ حسّاسةٍ رقيقةٍ ممتلئة بالعطف والحنيّة، من تحمل التّسامح عنواناً للحياة، وترى الحبّ هو الغاية الأسمى في الوجود، تسعى لتترك أثراً لطيفاً في كلّ ما تلمسه وتمرّ عليه

تحبّ الهدوء والعيش فيه، مبتعدةً عن صخب الدّنيّا واللّهث وراء الأحلام الكبرى، وهل هذه تجتمع مع تلك الشّخصيّة الجبّارة من تدهس قلبها حين يلزم الأمر، وتنسى شعورها وتعيش لتحقيق أحلامها والوصول إلى غايتها الكبرى؟!

نعم أنا ذاتهما، وهذا ما ظللت أحدّثك عنه طوالاً، أنا التّناقض عينه!

لكن الطّرفان لم ينتهيا بعد، فأنا لست أعيش بين طرفين فقط، بل بكلّ شبرٍ من هذين الطّرفين أكون شخصيةً أخرى وكلّ واحدةٍ منهم لا تشبه الأخرى، فأنا إن أردت أن أحدّث شخصياتي كلّها لاحتجت إلى أشهرٍ من الكتابة ولربّما صار الكتاب ممّلاً لك وانا لا أودّ ذلك.

كطائرٍ حزينٍ يحرقه الولع، ويقصّ جناحيه الفراق، ويؤلمه الخذلان، أكون حينما أتذكّر ما اعترض رحلتي من خذلانٍ فتّتني ومنعتني الدّنيّا حينها أن أتصرّف كما أريد، وروّض الزّمن صوتي ودفنه بجرحٍ يأنّ بي، ظننته شُفي لكنّني اكتشفت فيما بعد أنّه لا شفاء من وجعٍ ما فعلت له ما تريده فعلاً، فلن تلتألم تلك النّدب طالما أنّك لم تفعل ما يشفيك، يأتي لذلك الطّائر المتألم صقرٌ مهيب العين، قويّ الجناح، عال القعقعة، وينظر للطّائر معاتباً، ناصحاً، مدافعا، مبرّراً، واعداً، مُشجّعاً، وأخيراً حاضناً، وأنا أكون الطّائر والصّقر معاً.

أتذكّر قول "أحمد خالد توفيق" في رواية "ما وراء الطّبيعة"
حينما قال:
"لن أتوقف عن حبك يا ماجي، حتى تحترق النجوم وتفنى العوالم، حتى تتصادم الكواكب وتذبل الشموس، حتى ينطفئ القمر وتجف البحار والأنهار، حتى أشيخ فتتآكل ذكرياتي، حتى يعجز لساني عن لفظ اسمك، حتى ينبض قلبي للمرة الأخيرة، فقط عند ذلك ربما أتوقف"
فأنظر إلى مرآتي ما أحملها بيدي، أنظر لها، فأرى فتاةً تفتن عينيّ، تجعل قلبي يرفرف حبّاً لها، وتغري عقلي كما لا يفعل الطّبّ بي!

فأشعر بالحبّ يتسلّل منّي إلى مرآتي، إلى تلك الصّورة ما أراها وأحبّها، بل من أدركت أنّني لا أحبّ أحداً كحبّي لها، بل هي أعظم حبّاً ذقت مذاقه بعين الحبّ ذاتها، من أهديها كلّ ما أكتب، وكلّ ما يستهويني من كتاباتٍ وعباراتٍ، فأسدل عليها كلّ ثقافات العشق، وأساطير الغرام، وهل هناك قمر أبهى منّي كي أحبّه أكثر منّي؟!

لا واللّه لم يأتِ هذا الكون بمعجزةٍ تستحقّ الحبّ كما أتى بي لي!

في كتابي أنا أنتِ أوضّح لك كيف يمكنني أن أكون شخصياتي الكثيرة، بل أنا وأنتَ وأنتِ خُلقنا هكذا، نحملُ بنا الكثير، والحياة تعلّمنا من نغذّي ممّا نحمله، والتّجارب تجعلك بطابعٍ يغلب غيره بك، وتربيتك تروّض بك شخصاً معيّناً، وثقافتك من تسقي الشّخصيات الأُخر بك، وأنت وحدك من تقرّر من تكون، وما تكون، فأنا مثلاً أحياناً أصل إلى محطةٍ من حياتي، لا أريد بها أن أكون سوى مطمئنة، مرتاحة البال، أن أشعر وكأنّني إنسانةٌ طبيعيّةٌ كغيرها، تكبر وتتزوّج وتؤسس عائلة وتنجب أطفالاً وتعيش بسلامٍ مع عائلتها

ببيتها، وتطبخ وتربّي وتكون سعيدة بهذا، وإلى جانب هذه الشّخصيّة أكون الفتاة الطّموحة، من حملت الطّبّ بقلبها، ومن أهدت سنين عمرها إلى العلم، وأفنت شبابها في التّعلّم و تسعى وتسعى لتكون الدّكتورة الأولى في العالم أجمع، كما أنّني أنتمي إلى الكتابة والأدب بشكلٍ أحبّه كثيراً، وأطمح أيضاً أن يصل اسم الكاتبة إلى شتّى بقاع الأرض، وأن أترك كتباً كثيرةً خلفي تقرأها أجيال الدّنيّا المتتالية دون مللٍ أو كللٍ، فأنا حقّاً أجد ذاتي الكبرى، في الطبيبة الدكتورة الكاتبة عائشة

من تتنفّس الحلم، وتعيش بنبض الأمل، وتخفق طموحاً، وتعمل على صنع حياة فاخرة، تشبه تفاصيلي، تليق بي، تسعدني، تعوّضني، وتنسيني تعب السّنين والأعوام الكثيرة، وتفدي لي عمري الباقي كما أهديتها أنا عمري الماضي، فهل وجدت الفرق بين الفتاة العاديّة بي وبين الفتاة الطّموحة حدّ السّماء؟!

وبين هاتين الفتاتين، هناك فتاة تحبّ الحبّ، بل هي من خُلقت من رحم الحبّ، تؤمن أنّ يوماً ما ستتزوج بزواجٍ ليس عاديّاً البتة، بل سألتقي بشريك العمر، ما كتبت عنه منذ زمنٍ وأسميته"المعجزة"

ذاك من يليق به أن أمسك يده، وأمنحه عمري وقلبي، أشاركه اسمي، وأجعله أباً لأطفالي، فبداخلي أيضاً فتاة الحبّ، من تطمح أن تعيش قصة حبّ أسطوريّةٍ، تنتهي بزفافٍ لا يشبه سواه، ويصبح نمط حياتها المتجدّد، ما لن يمسّه يوماً مللاً أو برودة أو ندماً أو غدراً أو خيانةً.

فمالي أنا فاعلة بكلّ هؤلاء، بين الإنسانة الهادئة السّاعية إلى السّلام والاستقرار، وبين الكتلة النّاريّة من الأحلام والطّموحات الكبرى، وبين حبيبة الحبّ وفارسته، من تحبّ الفارس وتهوى طرقهما معاً؟!

أيا ليتها انتهت هنا، فأنا لم أحدّثك بعد عن تلك الطّفلة، المحبّة للأطفال، صاحبة الضّحكة المميّزة، ما لن تغادر شفاها في كلّ حياتها، من تضحك وتضحك وكأنّها تتنفّس الضّحك، من تبتسم للجميع وكأنّ الابتسامة هي هويّتها، من تداعب كلّ طفلٍ تراه، تغمره في حضنها وكأنّه طفل، وهل يعقل أن تحبّ أطفال العالم أجمع وكأنّهم كلّهم أطفالها؟!

نعم، هي من جعلت كلّ أطفال العالم أطفالها، هي ذات الثّلاثة والعشرون عاماً في البطاقة، ذات الثّلاث سنوات بين الأطفال، تترك الشّباب وحدهم، وتركض للأطفال تلعب، وتضحك، وترقص معهم وكأنّ الطّفلة الباقية بها هي وحدها من تسيطر عليها برفقتهم، اللّه على طفولة قلبها و روحها ما أغلاها!

أنا كلّ ما حدّثتك عنه يا عزيزي القارئ، أنا صاحبة القرار السّديد، وذات الحكمة الكبيرة، والنّضج الواسع، والفكر العميق، والعقل المدبّر، وأنا تاج الأحلام، وأهل الطّموح، وقرار العزيمة، وسباق التّحدي، ومنارة القوّة، وطريق الأمل، وأنا ابنة الحبّ، صديقة العشق، ورفيقة الغرام، وكلّ ما يجمع حروف الحبّ الأربعة، وأنا تلك الطّفلة المشاكسة، المرحة، من تلعب وتضحك وتمرح وتغنّي وترقص، من لا تكبر ولا تتعب، وأنا أيضاً تلك البسيطة، الهادئة، من تحمّل همّاً واحداً تسعى له وهو الاستقرار والسّكينة والسّلام، وأنا كلّ ما أتت بها الدّنيّا من شخصياتٍ كثر، بأطباعٍ أكثر، بألوانٍ عديدةٍ، بأطيافٍ واسعةٍ، بشمولٍ واسعٍ حدّ الكون، والآن بعد أن تحدّثت عمّن أكون أنا، سأسألك أنت الآن، من أنت؟!

أقفُ وكلّي ارتعاشةٌ من الأنا، أنظرُ لي،
وألمسني وكأنّني المرّة الأولى ألمسُني بها،
أسمعني أقول لي: أتذكرين ماذا قال"حذيفة
العرجي" يا أنا؟!
أتذكّرُ نعم، إنّه قال:
"لولا الّذي أحيا بنفسكَ صبرها لولاهُ كنتَ الآنَ
أسوأَ حالاً
قلبٌ بحجمِ الكَفِّ، بل هوَ بعضُهُ باللهِ كيفَ حملتَ
فيهِ جبالاً؟!"
ومن أخبركِ يا أنا أنّني نسيت حمل الجبال؟!
_هل تعبتِ؟!
_وما رأيكِ؟!
_أثق بكِ.
_وأنا أحبّكِ.
_هل خفتِ عندما تحدّثتُ عن العاديّة؟!
_ذُهلتُ باعترافكِ.
_اضحكي معي الآن، فأنا قلت لبرهةٍ يا حبيبتي.
_لم أعتد أن أرى منك ما هو مألوفٌ.
_لذلك أنا أثق بكِ وأحبّكِ.

هل فهمت من حوارنا شيئاً أيّها القارئ؟!
هل أخذت العبرة ممّا قاله الشّاعر؟!
إلى متى ستظلّ تائهاً عنك؟!
إلى متى ستحمّل قلبك ما هو له؟!
إلى متى ستجوب الأرض والزّمان بحثاً عن شبيهٍ وشريكٍ لك وأنت لم تجد نفسك بعد؟!
دعني أمسكُ يدك، آخذك إلى بداية الرّحلة، أشرح صدرك لها، وأشجّعك على خوضها، وأبيّن لك عظمة ما ينتظرك بآخرها، ألا وهو أنت؟!

هيّا ابحث عنك، هيّا جدك، عش منعمّاً بذاتك، وأكمل العمر بما تستحقّ منك ذاتك، وانس السّنين المسلوبة منك في دروب الضّياع، وأنر الدّروب ما أهلكتها العتمة لفتراتٍ عجافٍ طوالٍ، صدّقني هذا يستحقّ.

فالكثير منّا يعيش ولا يعلم ذاته، لا يعلم من هو، ولا يعلم ما يريد، ولا يعلم لماذا خُلق، ولا يعلم ما يحب عليه فعله في الحياة، لا تكن ممّا يعيش كالقطيع، يأكل ويشرب ويتزوّج وينام، لا تكن مثله، فأنت أرقى من عيش الحيوانات!

نقترب نحنُ من آخر محطةٍ لنا في هذا الكتاب، وسأحاول أن أصف لكَ كيف هو حال من كتبت هذا الكتاب محدّثة ذاتي، مشجّعتك على حديثٍ مثلنا، تكون به أنت وذاتك، متذكّراً هذه اللّحظة بالذّات، فهل أنت تتفاعل معي؟!

أعود وأنظرُ إلى مرآةٍ

مرصّعةٍ باللّؤلؤ، مزيّنةٍ باسم فتاة من خمسة أحرف، بين خطوطها اختصرت الدّنيّا كلّها، فأنظرُ إلى جمالٍ أبدع الخالق به، أسبّحه وأذكره، وأعظّم قدرته في خلقٍ عجيبٍ كهذا، وأحصن نفسي من عيني، وأنظر بعين الحبّ أولاً إلى هذه الملامح من تحمل براءة الطّفولة ونار القوّة معاً، أجدني طفلةً تحمل براءة العالم كلّه بها، وأجدني أنثى قويّة تحرق بنيران أحلامها الوجود بأسره، فأضيع بين مفاتن البراءة والقوّة وأحبّهما كلاهما، وأنظر مجدّداً لي بعين الفخر، أعتزّ بفوزي بتلك الحروب الكثيرة المتصاعدة مع أعوامي، وأفتخر بكبر هذا الكون بخروجي حيّةً من معاركٍ شرسةٍ كالّتي اجتزتها وحدي

وتملؤني النّرجسيّة
حينها وأنا أتذكّر كيف وكيف
وكيف وماذا حصل وماذا جرى
وكيف وصلت إلى هنا، فأشعر
وكأنّني ملكةً على عرش هذا
الكوكب كلّه، فأنا وبكلّ نرجسيّةٍ لم
ألجأ يوماً إلى أحدهم طالبةً يداً
للعون، أو مستنداً لي بالمعركة، أو
مدافعاً عنّي في الخذلانات، أو
حامياً لي من الغدر، أو حتّى يداً
حنوناً تشدّ على يدي، أو كتفاً أبكي
عليه، أو حضناً أتدفّئ به، أنا وحدي
وحدي
وحدي

كنتُ، ولا أحد معي، فكيف سأتذكّر أحدهم وأنا الآن هنا؟!

وأنظرُ لي بعين الحياة، إلى تلك الفتاة المُفعمة بطاقة الحياة، من ترسم خطوط الكوكب من بين خطوط الضّحك في وجهها، من تشعّ شمس الكون من عينيها الحالمة بالغد، من تظهر القمر للكون بطلّتها الفاخرة، من تسدل الجمال على الدّنيّا من حكاياها المرويّة منها وعنها، فأحبّ تلك الطّاقة بي، وأحمد اللّه على عظمة هذه النّعمة، وأحبّ كوني أضحك وأضحك، وأرقص، وأرقص، وأغنّي، وأرسمُ، وألوّنُ، وأحبّ الخيل والفروسيّة، وأحبّ السّباحة والغوص، وأهوى القراءة والكتابة، وأميل إلى العزف واللّحن، وأحبّ أنّني أحبّ الحياة.

وأنظر لي مجدّداً فأحبّ حناني المعهود، حبّي للأطفال، حنيّتي العامرة، عطفي الصّادق، وبراءة نيّتي، وطهري اللّامع، أحبّ كوني حنونةً، لطيفةً، طيّبةً، رقيقةً، بريئةً، وكلّ ما تحمله الرّقة من ألوانٍ.

وأحبّ كوني امرأةً من نارٍ، كلّها عنفوانٌ، كبرياءٌ، جبروتٌ، قوّةٌ، ودمارٌ، بركانٌ وزلزالٌ، وطاقةٌ تشعل وتشعل وتشعل، لا تعرف الجموح أو الاسستلام، تكره الضّعف والخسارة، تحبّ النّجاح وتموت دونه، ولا تحيا إلى بعزّ، برأسٍ مرفوعةٍ، بأحلامٍ محقّقةٍ، بأهدافٍ موصولةٍ، بكلّ ما هو حقيقي، وعين اليقين.

وربّما هذه هي من تحمل
منّي الحظّ الأكبر، وذاك
الطّابع هو المسيطر عليّ
الأكثر بالدّرجة الأولى.
وأحبّ أنّني حماك السّلام،
وحفيدة الهدوء، صديقة
الأمان، وعصفورة الحبّ، من
تحمل حلماً واحداً وهو
العيش بأمانٍ، بسلامٍ، بهدوءٍ،
بعيداً عن صخب الأحلام
والحياة الكبرى الفاخرة.

وأحبّ أنّني أحمل تاج الوحدة،
من لا تتواجد بالجموع، أو تشارك
العائلة في اجتماعاتها، أحبّ كوني
بعيدة عن الجمعات الكثيرة، أُسعد لأنّ
ظلّي بعيداً دوماً عن جلساتهم، أدرك
جيّداً كم حضوري يحرمهم من
شعورهم بذاتهم أمامي، فتركت لهم
كلّ الحضور عساهم يخفّفون غيرةً
وحقداً وبغضاً لكنّهم واللّه لن يملّون
من الغيرة منّي، فهم من يرون
نفسهم هباءً إن حضرتُ أنا، طلّتي،
حضوري، جلستي، حديثي، مبسمي،
وحتّى طاقتي، كلّهم محسودة عليهم
من أعينهم المريضة الضّعيفة، لذلك
أنا أكثر من هو يعيش وحيداً، ويحبّ
الوحدة.

_أنسيتِ أنّ الحياة مشاركة؟!

_أنسيتِ أنّ الإنسان بطبعه

كائنٌ اجتماعيٌّ؟!

_أنسيت أنّ الوحدة قاتلة؟!

_أنسيت ما أقسى أن تجلسي

وحدك في المقهى تشربين

قهوتك وحدك متآملّة

الجموع؟!

لا، لم أنسَ، لكن هل هي

القسوة القاتلة بالوحدة أم

بالقرب المزييف؟!

الوحدة أم القرب الباغض؟!

الوحدة أم المحبّة المصطنعة؟!

الوحدة أم الكهن والغدر

والخيانة؟!

_نعم، نعم أوافقك الرّأي، لكن حذاري لك أن تقعي في فخّ الوحدة اللّامتناه، لا بأس بقليلٍ منها في بعض الأحيان، وبكثيرٍ منها في أحيانٍ أخرى، لكن إيّاك وإدمانها، كي لا يأت يوماً تتمنّين به يداً تساعدك تصلين إلى محفظة دوائك تأخذين حبّةً تحت اللّسان حين يتسرّع قلبك فجأةً!

لا يا حبيبتي، أعي أهميّة المشاركة في هذه الحياة، وأنا أفرّق بين الوحدة والانطواء والانتقاء والاصطفاء، أميّز فلا تقلقي.

وأخيراً أحبّ كونني أنا، بكلّ ما تحمله الأنا، ما ذكرته لك، وما لم أذكره، ما أعرفه وما سأعرفه، فكلّنا في تجدّدٍ دائمٍ، وتغيير مستمرٍ، ورحلةٍ مستمرة من اكتشافنا وجديدنا، أحبّ باختصارٍ شديدٍ التّناقض ما يتأصّل بي ومنّي، وأحبّ إلى جانبه التّرادف الكبير الواضح، والأهم أنّني مغرمة وعاشقة لما اكتشفته منّي، وأعدني أن أكون عاشقة لما سأكتشفه أيضاً، سأظلّ أحبّني، وأفتخر بي دائماً، فكلّ ما ينتمي لي هو لي، وكلّ ما هو لي هو خارجٌ عن إطار المقارنة، التّشبيه، التّقليد، التّطبّع، المحاكاة، وكلّ ما يحمله العقل!

رسالتي لك في ختام كتابي،

حبْ من تكون، وتقبّل كونك أشخاصاً في شخصٍ واحدٍ، لا تستغرب إن تهت عنك، أو فقدت ذاتك، لكن إيّاك والعبث بك ونسيانك ضائعاً، ابحث عنك حتّى تجدك، لا بأس إن كنت عصبيّاً تارة وهادئاً تارةً أخرى، متأمّلاً أحياناً ويائساً أحياناً، صبوراً بعض الوقت، متعجرفاً بالكثير، مخلصاً وغادراً، لا بأس لا بأس

فالموقف يفرض عليك من تكون

الشخص المقابل يفرض عليك من تكون

حالتك تفرض عليك من تكون

مزاجك ونفسيّتك تفرض عليك من تكون

بيئتك تفرض عليك من تكون

وكلّ ما هو محيط بك يفرض عليك من تكون

فلا تنسى أنّك أداة من أدوات الكون

تتفاعل معه

تستجيب له

تخضع له

وتمشي معه

فكن راضياً عن كافة تياراتك واتجاهاتك

ولا تنسى أن تكون سعيداً مهما كانت الطّاقة المحيطة بك قليلة

اسعَ كي تجدّد طاقتك

وجدّد أنفاسك

رؤيتك

شعورك

منطقك

تفكيرك

وكلّ كلّك.

الخاتمة

كما قال درويشي يوماً"سأصيرُ يوماً ما أريد
وأنسى من أنا"وأنا أنا بالأمس، وباليوم،
وبالغد، أحبّ أيقونة العالم المتفرّدة بي، أحبّ
قيثارات الحبّ الحانية لي، أحبّ ألوان الحياة
المزيّنة لأحلامي، أحبّ عائشة وكلّ ما هو لها
ومنها وبها، أحبّ كونني مزيج لا يتكرّر، أحبّ
أنّني لا أشبه إلّاي، أحبّ تفرّدي بين نسخ
العالم المكررة، أحبّ طاقة الكون وتردّداته
معي، وأحب الوجود النّابض بي، وأحبّ تعبي
في دنيّتي ما سيوصلني إلى محطّتي النّهائيّة
المنتظرة كي أبدأ من عندها عيشي وأجعل
السّنوات قبلها ذكريات عالم البرزخ!
فأنا لا أنسى قول المتنبي"وإن كانت النّفوس
كباراً
تعبَت في مرادها الأجسام"

انتهى والحمد للّه

حبيبتي يا أنا، أحب ألوانك كلها وسعيدة أنا
لشخصيات متميزة كالتي نحن بها، فدمنا لنا.
"يحاذرني حتفي كأني حتي حتفه،
وتنكزني الأفعى فيقتلها سمي"
الدكتورة الكاتبة عائشة عبدالقادر السيد